

## فقدان الأسنان في الأحلام

بقلم

نجيب يوسف بروى

المدرس بطنطا الثانوية للبنات

- ١ - حلمان . ٢ - المؤثر الحسى . ٣ - التأويل الشعبى . ٤ - رأى أصحاب التحليل النفسى .
- ٥ - خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين . ٦ - وظيفة خلع السن عند البدائيين . ٧ - تفسير جديد لحلم فقدان الأسنان . ٨ - تطبيق هذا التفسير على التأويل الشعبى .

### ١ - حلمان

الحلم بسقوط الأسنان أو خلعها من « الأحلام النموذجية » التى يحلم بها كثير من الناس بطريقة متشابهة . وقد انتابنى هذا الحلم فى العطلة الصيفية الماضية مرتين . والمدة بين الحلم والآخر حوالى شهرين . وقد عنيت بتدوين الحلمين عقب الحلم الثانى مباشرة . وكان الدافع إلى هذا الاهتمام هو تكرار الحلم بصورة متشابهة مرتين ووضوحه فى الحالتين وضوحاً تاماً ؛ حتى بدأ مجسماً وكأنه حقيقة واقعة . ودليل ذلك أن أول ما فعلته ، عند ما استيقظت ، أن تحسست أسنانى لكى أتأكد هل فقد منها شىء . وسررت فى الحالتين عند إدراكى أنها سليمة . وقد أغرانى وضوح حلم سقوط السن ، وغرابته ، وتكراره مرتين بتدوينه ، ففعلت . وأنقل فيما يلى مما كتبت عقب تكرار الحلم للمرة الثانية :

الحلم الأول : بينما كنت فى القاهرة ، حلمت - على أثر الإكثار من أكل

الجبن في العشاء بأن جزءاً من سنتي الأمامية في المقاطع العليا قد انكسر . وبدأ في الحلم أن سبب الكسر وجود مادة غريبة في فمي . ناولتني صغرى أخواتي إبيريقاً به ماء لمضمضة في لإزالة هذه المادة الغريبة . واستيقظت وأنا في شدة العطش . أما الحلم الثاني فكان في طنطا . على أثر الإكثار من تناول الجبن القديم مع طعام الغذاء ، والنوم بدون عشاء . حلمت بأن أكثر من سنة واحدة تقلقت وبصفة خاصة سنة في المقاطع العليا هي التي حاولت جاهداً طوال الحلم أن أبقى عليها في موضعها . وطلبت من الدكتور ألا يخلعها وأن يحاول علاجها . وفجأة وجدت أني خلعتها في يدي وسبب لي ذلك كثيراً من الضيق . كذلك بدأ لي في أثناء محاولتي الاحتفاظ بالسن في موضعه أن جزءاً منه كأنه من بلورات الملح . واستيقظت وأنا في شدة الظمأ والحلم ملء رأسي ، فتحسست أسناني ، وسررت لأنها سليمة . ثم دونت الحلمين .

## ٢ - المؤثر الحسى

وحين نظرت في الحلمين وجدت الظروف التي أحاطت بهما متشابهة ، وبصفة خاصة حدوتهما عقب أكل الجبن الحادق ، والشعور بالعطش الشديد عند الاستيقاظ . ومن ثم ألمح على التفسير بالمؤثر الحسى الداخلى . ويلوح أن ثمة ارتباط بين الملوحة الشديدة في الفم ، نتيجة الإكثار من أكل الجبن ، والحلم بفقدان الأسنان . مثل هذا الارتباط استدعى نتيجة للانطباع القديم الذى تركه تبديل الأسنان منذ أن كنت طفلاً حين اعتدت عقب خلع أى سن وضع فص ملح خشن مكانها ليقف التزيف . وانطبع هذا الارتباط بين الملح وخلع السن . فعندما أكثرت من أكل الجبن الحادق ، استدعى هذا الانطباع القديم ؛ وأثار الإحساس بالملوحة الشديدة الحلم بسقوط السن . واستيقظت في كلا الحالين وأنا في شدة العطش .

أقنعت نفسى بهذا التفسير إلى حين ، لإدراكي أن تفسير الأحلام على أساس المؤثر الحسى لا يكون غالباً سوى تفسير جزئى . فإذا نجح المؤثر الحسى في إثارة الحلم ، فإنه لا يشرح حقيقته ولا يكون وحده تعبيراً كافياً له . ويتعذر القول في الأحلام بالسببية البسيطة : فليست كل أكلة جبن أو طعام حادق ، يصحبها حلم بسقوط أو خلع سن . كما أن سقوط أو خلع سن في الحلم لا يشترط

أن يكون نتيجة لأكل الجبن ( كما تصادف في هذين الحلمين ) . فالحلم ظاهرة نفسية ، ويفيد من المؤثر الحسى . فقد ينجح المؤثر الحسى في التمهيد لبداية الحلم ، وقد يتحد مع سياق الحلم ، ويدخل ضمن مشموله النفسى ، لأن الحلم يحاك من مكونات النفس .

### ٣ - التأويل الشعبى

ويعتبر العامة سقوط السن في الحلم من النذر الباعثة على التطير . ففي التأويل الشعبى ينبىء خلع السن في الحلم عن وفاة قريب . ولهذا الاعتقاد نص في تفسير ابن سيرين . وهذا النص هو : « وأما الأسنان فإنهم أهل بيت الرجل فالعليا هم الرجال من أهل البيت والسفلى هم النساء . فالناب سيد بيته والثنية اليمنى الأب والثنية اليسرى العم ، وإن لم يكونا فأخوان أو ابنا . فإن لم يكونا فصديقان شقيقان . والرابعة ابن العم . والضواحك الأحوال والحالات ومن يقوم مقامهم في النصح . والأضراس الأجداد والبنون الصغار . والثنية السفلى اليمنى الأم واليسرى العممة فإن لم يكونا فأختان أو ابنتان أو من يقوم مقامهما . والرابعة السفلى بنات العم وبنات العمات . والناب السفلى سيدة أهل بيتها . والضواحك السفلى بنات الخال والخالة . والأضراس السفلى الأبعدون من أهل بيت الرجل من النساء والبنات الصغار . وحركة بعض الأسنان دليل على من هو تأويله في المرض . وسقوطه وضياعه دليل على موته أو غيبته عنه غيبة من لا يعود إليه . » (١)

والاعتقاد بأن سقوط سن أو خلع في الحلم ، يدل على وفاة قريب ، من المعتقدات الذائعة الانتشار التي يشاركنا فيها شعوب كثيرة . كما أنه اعتقاد قديم كان معروفاً منذ عهد أرتيميدورس اليونانى في القرن الثانى للميلاد . وقد أورد الدكتور توفيق الطويل في كتابه « الأحلام » تفسير هذا الحلم ، كنموذج للشباب في تعبير الأحلام ، في العصور المختلفة ، وبين الشعوب المختلفة . « يعبر فقدان الأسنان في الأحلام عند سكان إفريقيا الوسطى عن فقدان زوجة أو طفل أو أحد الأقارب . وهو في أرتيميدورس فقدان أحد من أفراد الأسرة ، والأسنان عنده متصلة بالأطفال وإمسك الأسنان الساقطة من فم إنسان ، يعبر عن فقدان الأطفال

(١) « منتخب الكلام في تفسير الأحلام » لمحمد بن سيرين - دار الطباعة الخديوية ، ببولاق -

بالموت أو بغيره . ووجد الأستاذ «سليجان» Seligman أن فقدان الأسنان يؤول في كل مكان تقريباً ، بمعنى فقدان قريب أو صديق . أما عند المسلمين فإن الأسنان أهل بيت الرجل وفرشه أى زوجته وأقاربه كذلك ، فالعليا ترمز للرجال من أهل بيته ، والسفلى للنساء ، والنايب سيد بيته . . . إلى آخر الأهل والأقارب كما أوردنا ، فى النص المقتبس عن ابن سيرين . «وضياع الأسنان وسقوطها إلى الأرض موت أو غيبة لا عودة بعدها» ص ٢٠٠ .

وتأويل الرمز الواحد تأويلاً متشابهاً عند سكان إفريقيا الوسطى فى العصر الحديث ، وعند اليونان فى العصور القديمة ، وعند المسلمين فى العصور الوسطى ، يرجع إلى «وحدة العقل البشرى» ونزوعه إلى التفكير المتشابه فى كل زمان ومكان . . . ص ٢٠١ . على أن التسليم بوحدة العقل البشرى ، لا يمنع من قيام عدوى الأفكار ، وانتقالها من شعب إلى شعب ، ومن عصر إلى عصر . . . ص ٢٠٢ . وبين أنصار المصدر الواحد ، وأنصار المصادر المتعددة ، أو بين أنصار التوزيع ، وأنصار التطور القائلين بوحدة العقل البشرى ، جدل طويل يعرفه كل من أخذ من الإنثروبولوجيا بقسط .

#### ٤ - رأى أصحاب التحليل النفسى

على الرغم من تشابه تأويل حلم فقدان الأسنان بأنه ينذر بوفاة قريب ، وعلى الرغم من ذبوع هذا التأويل وقدمه ، فإن أنصار التحليل النفسى لا يلتفتون إلى حوادث المصادفة الخارجية التى قد تحدث أو لا تحدث فى المستقبل ؛ وإنما يبحثون عن مغزى الحلم فى الدوافع اللاشعورية .

ونعرض فيما يلى آراء بعض أعلام التحليل النفسى فى تفسير هذا الحلم نقلاً عن فرويد (١) .

«لقد خفى عنى معنى الأحلام بسقوط الأسنان التى كثيراً ما كان على أن أحللها لمرضى ، مدة طويلة لأنها كانت دائماً ، مما أثار دهشتى ، تستعصى على

S. Freud: "The Interpretation of Dreams;" Allen & Unwin. Pp 362-369 (١)

التأويل . ولكن اجتمع لدى أخيراً من الأدلة القاطعة ، ما أقتنتى بأن القوة الدافعة لهذه الأحلام عند الرجال ما هي إلا رغبات المراهقة في الاستثناء» (١) .

«وأعتقد أن التحويرات المألوفة لهذا الحلم النموذجي - كأن يخلع شخص آخر السن من فم الحلم - يجعلها نفس هذا التفسير مفهومة . ويؤوّل شتيكل خلع شخص آخر السن في الحلم من فم الحلم ، بالإخصاء . ويقول مثل ذلك في قص الشعر . وربما كان من الصعب فهم كيف تأتي لحلم فقدان الأسنان هذا المغزى . ولكني في هذا المقام يحسن أن ألفت النظر إلى «الإبدال من أسفل إلى أعلى» وهو الحيلة التي يفيد منها الكبت الجنسي ، والتي تتحقق بواسطتها الإحساسات والنوايا ، في حالة المستيريا ، التي موضوعها النصف الأسفل من الجسم ، في أعضاء أخرى منه ، ليس منها حرج . (٢)»

«ولن أدعى أن تأويل أحلام فقدان الأسنان : بأنها أحلام الاستثناء (وصحة ذلك لا أستطيع أن أشك فيها) قد خلا من الغموض . إني أتقدم في التفسير إلى الحد الذي أستطيعه ، وأترك الباقي دون حل .» وما يعنيه فرويد بهذا الغموض يشير إليه في هامش نفس الصفحة فيقول : «يرى يونج أن حلم النساء بفقدان الأسنان له مغزى أحلام الوضع . ويؤيده في ذلك أرنست جوزر . والعنصر المشترك بين هذا التأويل وتأويل شتيكل السالف الذكر . هو أنه في كلا الحالين (الإخصاء - الولادة) انتزاع جزء من كل الجسم .»

فكأن حلم فقدان الأسنان من الأحلام الجنسية : يؤوله فرويد بأنه إفصاح عن الرغبة في الاستثناء . ويؤوله شتيكل بأنه تعبير عن الإخصاء . وهكذا نرى أننا وضعنا أنفسنا في موقف لا نحسد عليه : رأى أنصار التحليل النفسي في الحلم صريح ، ومع هذا نروى الحلمين ! ما أصدق نصح القدماء حين قالوا : لا تقص الرؤيا إلا على عالم أو ناصح . ولا تقصها على جاهل أو عدو أو حاسد (٣) كان من الممكن إغفال ذكر الحلمين . أو لعلنا كنا نحسن صنعاً لو نسبناهما إلى غائب . غير أننا آثرنا أن ننشد الحقيقة خالصة ، ولا سيما أن الصفوة الذين

(١) Ibid., P. 326.

(٢) Ibid., P. 364.

(٣) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٨ من المقالة الحادية عشرة ، ص ١٨ .

نقص عليهم الرؤية يشجعون التزام الأمانة العلمية . وإذا كان لنا فى الموضوع الذى نتصدى لبحثه . خبرة أصيلة ، فهل نمسك عن ذكرها لمثل هذه الاعتبارات الواهية ؟ يضاف إلى ذلك أننا نذهب فى تأويل هذا الحلم مذهباً جديداً . وإذا صح هذا التفسير الجديد . اتضح أنه ليس فى هذا الحلم ما يدعو إلى الحرج ! وقد يحلو للبعض أن يوجه إلينا بهذا التفسير الجديد ، تهمة « المقاومة » التى تعتبر من الأدلة فى صالح تفسير أنصار التحليل النفسى . على القارئ الناقد أن يتدبر هذا التفسير الجديد . ليتأكد أنه ليس للاعتبار الشخصى دخل فيه .

#### ٥ - خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين

من العادات الغربية لدى بعض الجماعات البدائية المعاصرة ، تحطيم سن أو اثنين من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى ، فى طقوس تنصيب المراهقين والاحتفال بختانهم . وهذه العادة عند سكان أستراليا الأصليين<sup>(١)</sup> ، وعند الزوج فى إفريقيا من قبائل البانتو الجنوبيين<sup>(٢)</sup> . وتتخلص طقوس تنصيب المراهقين فى عزل الفتيان الذين بلغوا فى معسكر خاص بهم ، حيث يتمرسون على بعض الأعمال والحرف ، ويمتازون باختبارات عديدة لتعويدهم قوة الاحتمال ، ويلقنون تقاليد القبيلة وعاداتها والنواهي الخلقية والمحرمات والأمور المقدسة فيها . كل ذلك وهم بمعزل عن بقية القبيلة . ويحظر على النساء والأطفال الاقتراب منهم . وقبل أن يسمح لهم بالتمتع بحقوق الرجال ، والاندماج مرة ثانية فى القبيلة ، يقام حفل لتنصيبهم . وفى هذا الحفل يمثلون قتل المراهقين ، وبعثهم من جديد . ويجرى لكل مراهق عملية الختان . ثم يخلع لكل منهم سن من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى . وليست جميع طقوس المراهقين مصحوبة بتحطيم السن . فكثير من الجماعات البدائية تمارس طقوس التنصيب بدون عادة خلع السن . كما أن هناك اختلافات فى تفاصيل هذه الطقوس ، بين الجماعات المختلفة . ولكنها ، بوجه عام تشترك فى تلك المظاهر التى لخصناها .

B. Spencer & F.J. Gillen : "Initiation Ceremonies"; in An Outline of (١)  
Anthropology, edited by V.F. Calverton, Modern Library. P. 281.

C.G. Seligman : "Races of Africa"; The Home University Library, 1939; (٢)  
P. 188.

تحتاج هذه العادة الغريبة ، وهي خلع السن عند البدائيين ، إلى تفسير وقد بحثنا في كتب الأنثروبولوجيا ، التي تناولت موضوع طقوس تنصيب المراهقين بالدراسة ، عن تفسير لهذه العادة الغريبة ، فلم نعثر إلا على تفسير واحد لروحيه باستيد ، سنناقشه بعد قليل .

ونعتقد أننا إذا استطعنا تفسير عادة البدائيين في خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين ، فإن هذا التفسير قد يلقى لنا ضوءاً على مغزى حلم فقدان الأسنان . فللطقوس البدائية والأساطير دوافع لاشعورية . كما أن أصحاب التحليل النفسى ربطوا طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور . والموازنة بين الأحلام النموذجية من ناحية ، والأساطير والطقوس من ناحية أخرى ، مسموح بها من الناحية المنهجية . وباصطناع هذه الطريقة . استعار روجيه باستيد فكرة الرمز الجنسية من فرويد ، وطبقها على هذه الظاهرة الأنثروبولوجية وهي خلع السن في طقوس التنصيب . يقول : « هناك علاقة بين خلع السن لدى غير المتحضرين وبين الختان ، وتكاد تكون هذه العملية نوعاً من العمليات الرمزية التي أشار إليها فرويد . فهي إذن طقوس جنسية . » (١)

وإذا كان روجيه باستيد يفسر المجهول بالعلوم : فيستعير فكرة معلومة من التحليل النفسى ، ويطبقها على هذه الظاهرة الأنثروبولوجية المجهولة للدوافع ، نحاول نحن أن نعكس الترتيب في هذه الطريقة : بأن نعتبر دوافع الحلم هي المجهولة . ولنبدأ - متحررين من أية نظرية سابقة - في تفسير خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين . ونعتقد أن من الممكن تفسير هذه الظاهرة الأنثروبولوجية تفسيراً أنثروبولوجياً . مثل هذا التفسير قد يلقى ضوءاً على الظاهرة النفسية وهي حلم فقدان الأسنان .

والنقد الأساسى الذى يوجه إلى تفسير روجيه باستيد هو أنه ينسب هذا الطقس البدائى إلى مبدأ موجه ثابت ، وفكرة جاهزة مسلم بها مقدماً هي فكرة فرويد عن الرموز الجنسية . هذا بالإضافة إلى أن خلع السن في طقوس البدائيين مصحوب بالختان ، وليس بديلاً عنه ، حتى يقال أنه من الرموز الجنسية . ويلوح أن هذا الحكم المتسرع نتج عن خطأ منهجى هو : عزل هذه الظاهرة الأنثروبولوجية (وهي

(١) « مبادئ علم الاجتماع الدينى » تأليف روجيه باستيد ، وترجمة دكتور محمود قاسم - مكتبة الأنجلو المصرية . ص ١٤٤ .

خلع السن وقت الختان) من مشمولها في وحدة الحضارة. وقد أدى انتزاعها وعزلها على هذا النحو، إلى إغفال وظيفتها في وحدة الطقوس القبلية. أى أن اقتطاع هذه الظاهرة أدى إلى عدم تتبع العلاقات الوظيفية الداخلية بينها وبين بقية طقوس تنصيب المراهقين، والعلاقات التي بينها وبين بقية مظاهر الحضارة، التي تكون إياها وحدة. علينا حينئذ أن نبحث عن الوظيفة التي يحققها تحطيم السن في طقوس تنصيب المراهقين.

### ٦ - وظيفة خلع السن عند البدائيين

إذا بحثنا عن وظيفة هذا الطقس البدائي، وجدنا أنه لا يحقق للفرد الذي يتعرض له أية فائدة؛ إذ أنه تشويه وإيذاء له. إنما يحقق هذا الطقس غرضاً للكبار المهمين على شؤون القبيلة، ويقوم بوظيفة هامة للسلطة. فالأسنان التي تخلع في طقوس تنصيب المراهقين قيمة سحرية. وتعتقد هذه الجماعات البدائية أن العلاقة تستمر بين المراهق وسنه المخلوعة. فالسن جزء يرمز للكل. وسن الشخص رمز للشخص نفسه. وما يتعرض له الجزء، يحل كذلك بالكل عن بعد. ومثل السن المخلوعة كمثل الخصلة من الشعر أو بقايا الأظافر التي يحرص أفراد هذه القبائل البدائية على ألا تقع في يد عدو أو كائد؛ لاعتقادهم أن من وقع في حوزته هذه الأشياء، وأراد بصاحبها سوءاً، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد: فكل ما يتعرض له الجزء، يحل أيضاً بالكل أى بصاحبه. ويطلق فريزر على هذا الضرب من السحر اسم: «السحر بالاقتران» وهو ينطوي، فيما يرى، على التطبيق الخاطيء لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران<sup>(١)</sup>. ويعتقد سكان أستراليا الأصليين أنه إذا دفن السن المخلوعة أسفل شجرة أو ألقى في النهر، لا يصاب صاحبه بسوء. أما إذا جرى عليه التمل، أصيب صاحبه بمرض في فمه<sup>(٢)</sup>. ومن الملاحظات التي لها مغزى في هذا الصدد، لأنها تبين لنا وظيفة هذه العادة، أن شيوخ بعض القبائل ورؤساءها في أستراليا يحتفون بالأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين<sup>(٣)</sup>. وتنتقل هذه الأسنان من شيخ إلى آخر في الخفاء ومع

J.G. Frazer : Magic and Religion. London : Watts, 1944, P. 61.

Ibid., P. 61.

Ibid., P. 62.

(١)

(٢)

(٣)

الحذر الشديد بحيث لا تتعرض للمواد التي لها تأثير سحري مثل أحجار الكوارتز ، وذلك حرصاً على سلامة الفتيان . وهذه القيمة السحرية التي للسن ، هي الوظيفة الأولى التي تحققها هذه العادة الغريبة للسلطة الضابطة في القبيلة . فالسن بمثابة (الأثر<sup>(١)</sup>) أو الجزء الذي يرمز للككل في طقوس (السحر بالاقتران) . ويحتفظ شيوخ الجماعة بهذا (الأثر) كرهينة يستطيعون بواسطتها أن يتحكموا في مصير الفتى . لأن من امتلك السن فكأنما امتلك زمام الشخص . واستطاع به ، إذا أراد ، أن يتحكم في مصيره عن بعد . فالوظيفة الأولى لخلع السن هي قيمته عند شيوخ القبيلة للأغراض السحرية .

يحقق خلع السن عند البدائيين غرضاً ثانياً هو أن خلع السن في طقوس التنصيب عمل عنيف يصحبه إطلاع المراهق على الأمور المقدسة والأسرار والمحظورات أو التابو . فهو طقس رمزي ، وخبرة مؤهلة ترتبط بالتابو ارتباطاً شرطياً . وتترك هذه الخبرة المؤهلة في نفس المراهق أثراً موقراً كفيلاً بأن يتذكره كلما سولت له نفسه أن يحيد أو أن يستخف بالتابو . وموقف البدائي بإزاء التابو موقف مزدوج متناقض ambivalent ؛ لأن التابو ينهاه عن خلق له فيه رغبة . ولفظ تابو نفسه - كما يقول فرويد<sup>(٢)</sup> - لفظ مزدوج متناقض : لأن كل محظور لا بد وأن يكون موضع رغبة . ولأن ما لا يرغب فيه أحد ، لا ضرورة لمنعه . فالوظيفة الثانية لخلع السن عند البدائيين هي الربط الشرطي بين التابو وخلع السن بحيث تكفل هذه الخبرة المؤهلة عدم خرق التابو .

وهكذا يظهرنا التحليل الوظيفي لطقوس تنصيب المراهقين على أن خلع السن في هذه الطقوس البدائية يحقق للسلطة الضابطة في القبيلة غرضين ، تفسرهما الرمزية والشرطية . وهذان الغرضان هما : القيمة السحرية للسن ، والربط الشرطي بين خلع السن والتابو . فهذه العادة الغريبة ليست منفصلة بل مترابطة مع بقية عناصر الحضارة ؛ ولها وظيفة . فهي جزء من الطقوس التي تلجأ إليها هذه الجماعات البدائية للحفاظ على تقاليدها ونظامها . وتضمن السلطة في القبيلة غرس هذه التقاليد واستمرارها ، باتخاذ الوسائل التي تكفل ضبط سلوك الأفراد وطاعتهم . ومن بين هذه الوسائل تحطيم السن في طقوس التنصيب . فوظيفة هذه العادة الغريبة

(١) « السحر » في مجلة علم النفس عدد يونيو سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

(٢) S. Freud : Totem and Taboo. Pelican, P. 97.

ليست للفرد وإنما للسلطة الضابطة . لناخذ حينئذ في الحسبان هذا الغرض وهو : أن خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين يحقق للسلطة الضابطة في هذه الجماعات البدائية وظيفة هامة .

#### ٧ - تفسير جديد لحلم فقدان الأسنان

إذا طبقنا هذا الفرض على حلم فقدان الأسنان ، وجدناه إلى الأحلام الحصرية أقرب منه إلى أحلام تحقق الرغبات . ويُعبر حلم فقدان الأسنان بطريقة مسرحية عن الصراع بين الرغبات المكبوتة والقوى الكابتة . ونميل إلى تأكيد أثر القوى الكابتة في الصورة النهائية للحلم . فهو يعتبر من أحلام العقاب أكثر منه تحقيقاً لرغبة . وفيه نكوص وارتداد إلى مرحلة بدائية : وكأننا يمر الحلم بفترة تنصيبه مراحقاً . وسقوط السن في الحلم بوصفه إفصاح السن عن القوى الكابتة للعقل ، يقوم في الحلم بنفس الوظيفة التي يؤديها خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين عند البدائيين . فكما أن هذه العادة البدائية تحقق غرضاً للسلطة الضابطة في القبيلة . كذلك يعبر فقدان الأسنان في الحلم عن وطأة الذات العليا أو الرقيب . ومن المعروف أن الذات العليا تستمد كيائها من مصادر السلطة الثابتة وهي : سلطة الأب . ومما ينحدر إلى الفرد من قواعد الأخلاق وآداب المجتمع . ومن المعروف كذلك أن الذات العليا تقوم بوظيفة الرقيب على ( الأنا ) ، وعلى النزعات الغريزية . فهى الناقد الخلقى الأعلى الذى يُشعر ( الأنا ) بالخطيئة . والذى يقوم بعملية الزجر . فإذا قلنا حينئذ أن حلم خلع السن قمع وزجر من الذات العليا . بدا وكأنما امتصت الذات العليا خصائص السلطة واسقطتها على الذات . فالذات العليا تعاقب الذات ( الأنا ) في هذا الحلم ، تعاقبها بخلع السن ! وقد يبلغ اشتداد وطأة الذات العليا إلى الحد الذى يخلع فيه السن فعلاً لا كحلم وحسب . « فأحياناً ينتهى حلم سقوط السن ، بأن يستيقظ الحلم فيتناول من فمه سناً مخلوعة ! »<sup>(١)</sup> ولا يشترط أن تعاقب الذات العليا - الذات ( الأنا ) على رغباتها الجنسية . فقد تعاقبها على نزعاتها العدائية المكبوتة . أو تعاقبها لأنها انتهكت حرمة التابو ، أو ما يقابل التابو في مجتمعنا الحديث من النواهي الخلقية والتحريمات والقوانين الدينية . . . ويمكن اعتبار سقوط السن في الحلم تحذيراً وتذكيراً بالقيم الخلقية وتقاليد المجتمع . . . والمقدسات .

وتتلخص أوجه الاختلاف بين تفسير فرويد لهذا الحلم وتفسيرنا له فيما يأتي :-

أولاً : يذهب فرويد إلى تأويل حلم فقدان الأسنان تأويلاً جنسياً . « فالقوة الدافعة لهذه الأحلام عند الرجال إن هي إلا رغبات المراهقة في الاستثناء » .  
 نميل نحن إلى تأكيد أثر القوى الكابتة في الصورة النهائية للحلم .  
 ثانياً : تأكيدنا لأثر القوى الكابتة يقضى بالاعتراف ضمناً بوجود النزعات التي تكبتها هذه القوى الكابتة . ومع تسليمنا بهذه النزعات المكبوتة ، فلا يشترط أن تكون جنسية . فقد تتضمن النزعات الغريزية الأخرى ، كالنزعات العدائية مثلاً .

ثالثاً : تفسير فرويد الجنسي لهذا الحلم معناه أنه تعبير عن رغبات (ألهمى - Id) . حقيقة لم يغفل فرويد أثر القوى الكابتة . إذ نسب إليها « الإبدال من أسفل إلى أعلى » أما تفسيرنا فيتلخص في أن الذات العليا تتوعد الذات (الأنا) في الحلم بهذا العقاب وهو خلع السن ، لأنها خالفت التابو أو ما يقابله في مجتمعنا من النواهي الخلقية والمحرمات التقليدية . أو تعاقبها على تمنياتها اللاشعورية الشريرة .  
 رابعاً : وإذا كان التفسير الجنسي لهذا الحلم قد جاء في أولى كتب فرويد ، فهو يمثل التحليل النفسي في طوره الأول . أما تفسيرنا فهو إذ يهتم بالنزعات العدوانية من ناحية ، ويأثر الذات العليا من ناحية أخرى ، يتمشي مع المرحلة الراهنة التي وصل إليها التحليل النفسي . ويوضح الأستاذ الدكتور يوسف مراد الصورة التي اتخذها التحليل النفسي في طوره الأخير بقوله : « في هذه المرحلة الجديدة تحول اهتمام التحليل النفسي من دراسة مظاهر الدافع الجنسي إلى مظاهر الدافع العدواني ، ومن دراسة المضمون النفسي المكبوت إلى دراسة الأنا الشعوري وموقفه من عالم الغرائز اللاشخصية من جهة ، ومن الأنا الأعلى من جهة أخرى » (١)

هذا التوسع في دوافع الحلم بحيث تشمل على مختلف النزعات الغريزية ، وتأكيد أثر القوى الكابتة في الصورة النهائية للحلم : اكتسبناه من التحليل الوظيفي لعادة خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين . ومن الربط بين طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور . وإذا كان روجيه باستيد قد استعار فكرة الرموز

(١) الدكتور يوسف مراد : « منهج التحليل النفسي وخصيئته التكاملية » في مجلة علم النفس ،

الجنسية ، من ميدان التحليل النفسي ، وطبقها على الظاهرة الأنثروبولوجية وهي خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين ، فما الذي يمنعنا ، من الناحية المنهجية ، من استعارة وظيفة هذه العادة الغريبة من ميدان الأنثروبولوجيا لتطبيقها على الظاهرة النفسية وهي الحلم ؟

أفضلًا عن أننا جعلنا التمسك بالمنهج رائدنا ، فهناك طريقة ثانية للتثبت من صدق هذا التفسير الجديد لحلم فقدان الأسنان ، وهي صلاحية هذا التفسير للتطبيق على التأويل الشعبي الذائع لهذا الحلم بأنه ينذر بوفاة قريب .

#### ٨ - تطبيق هذا التفسير على التأويل الشعبي

ليس يمكني تأويل الحلم ، وإنما ينبغي تفسير التأويل الشعبي له كذلك . وحيث أن هذا الحلم النموذجي يؤول في كل مكان تقريباً ( بحسب قول الأستاذ سليجمان ) بمعنى فقدان قريب أو صديق ، وحيث أن هذا التأويل قديم إذ كان معروفاً عند أرتيميدورس . . . لذلك يمكن اعتباره من عداد الأساطير . والأسطورة كالحلم لكل منهما دوافع لاشعورية . ويبدو أن هناك حتمية في اختيار دلالة الرمز في هذا الحلم بأنها وفاة قريب . وليس في هذا التأويل الشعبي مصادفة . ولا يعني ذلك بحال صدق الحلم كمنذر ، أو أن وفاة قريب مما يجوز توقعه على أثر هذا الحلم . ولكننا إذ ننكر القيمة التنبؤية للحلم ، لا نستطيع إغفال هذا التأويل الأسطوري للرمز بافتراض أنه من الرواسب الفكرية أو من الخرافات العقيمة ، وذلك لأن التوزيع الجغرافي لمدى انتشاره ، والتتابع التاريخي لمدى قدمه ، يحملنا على الاهتمام به ، ويحول بيننا وبين اعتباره بقية Survival فقدت وظيفتها . وإذا كنا ننكر على القدماء ما يصفونه على هذا الحلم من دلالة تنبؤ بالمستقبل ، نرى أن لهذا التأويل الميثولوجي دوافع لاشعورية تحتاج إلى تفسير . وإذا نجحنا في الكشف عن هذه الدوافع ، اتضح لنا الحتمية في اختيار القدماء لهذه الدلالة بالذات وهي وفاة قريب .

مما يساعد على معرفة الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الميثولوجي أن له نظير في أوهام العصبيين . فوفاة قريب تنسب لدى العصبي المصاب بالعصاب القهري Compulsion Neurosis ، بأنها نتيجة لانتهاك العصبي لحرمة التابو ، وعدم التزامه المحظورات والتحريمات القهرية التي فرضها على نفسه . ففي العصاب القهري

يتطير المريض من عدم التزام التحريمات ، ويعتقد أنه إذا خرق التابو ، ترتب على ذلك شر مستطير يحيق بقريب أو عزيز لديه . ورد الفعل السائد لهذا العصابي حيال وفاة قريب أو صديق . هو أن يتهم نفسه بأنه كان سبباً في وفاته . هذا الشعور المبهم بالذنب ، والتزعة إلى تأنيب النفس ، إفصاح عن القوى الكابتة للعقل . وهذا التأنيب الوسواسي obsessive reproach الذى يتسلط على العصابي ، فيعامل نفسه وكأنه كان سبباً في وفاة القريب هو نتيجة لرغبة لاشعورية قديمة في موته<sup>(١)</sup> . وهذه الرغبة اللاشعورية في موت قريب هي نتيجة للموقف المزدوج المتناقض ambivalent حيال الأقارب الذى يرى فرويد أنه في استعداد كل الناس ، ولكن بدرجات متفاوتة<sup>(٢)</sup> . والقول بالموقف المزدوج المتناقض بإزاء أفراد العائلة والأقارب<sup>(٣)</sup> ، يصعب تصديقه ويشير الاستنكار . وإشفاق العصابي من وفاة قريب ، إذا هو خرق التابو ، هو بمثابة تعويض<sup>(٤)</sup> compensation عن الرغبة اللاشعورية السابقة في موته . ويحل الاشفاق عليه من الموت ، محل تلك الرغبة اللاشعورية الشريرة السابقة في موته .

وعلى ذلك تبدو الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الشعبي في الموقف المزدوج المتناقض حيال الأقارب ، وفي العرض الوسواسي الذى يجعل العصابي القهري يؤنب نفسه عند وفاة قريب ، وكأنه مسئول عن ذلك ، والذى يجعله يشفق من وفاة قريب إذا هو خرق التابو ولم يأخذ نفسه باجتناب المحرمات . وهكذا تتضح الحتمية في اختيار دلالة الرمز في هذا التأويل الشعبي . كما يتضح كذلك أن وطأة الذات العليا تمثلت في التأويل الشعبي ، كما تمثلت في حلم سقوط السن ذاتها . وقد ذكرنا أن محك صدق تفسيرنا للحلم فقدان الأسنان هو صلاحيته للتطبيق على التأويل الشعبي . ويمكن أن نوضح ذلك بطريقة مبسطة على النحو الآتي :

S. Freud : Totem and Taboo. Pelican, P. 89.

(١)

Ibid., P. 90.

(٢)

(٣) أوضح فرويد حقيقة هذا الموقف بما لا يدع مجالاً للشك فيه ؛ وذلك بدراسته للأطفال

والعصابيين والأساطير والأحلام - راجع في هذا الصدد :

"The Interpretation of Dreams" P.P. 242-260.

S. Freud : Totem and Taboo; P. 104.

(٤)

(١٤)

حيث أن خرق التابو لدى المصاب بالعصايب القهري = وفاة قريب .  
 وأن دلالة سقوط السن في الحلم في التأويل الميثولوجي = وفاة قريب .  
 .. سقوط السن في الحلم = خرق التابو .

أى أن الحلم بسقوط السن هو نتيجة لانتهاك حرمة التابو (راجع تفسيرنا الجديده للحلم) أو ما يقابل التابو في مجتمعتنا الحديث من النواهي الخلقية والمحرمات التقليدية . ( الأمر الذى يترتب عليه - من وجهة نظر العصايب - موت قريب ) . وعلى ذلك لا يموت قريب لأنك حلمت بسقوط السن، وإنما حلمت بسقوط السن لتمنياتك اللاشعورية السابقة لقريب بالموت . أو حلمت بسقوط السن لأنك خرقت التابو ( الأمر الذى يتطير منه العصايب ويتوقع بعده وفاة قريب . ومثل هذا التوقع نتيجة للموقف المزدوج المتناقض بإزاء الأقارب . والإشفاق من وفاة قريب هو تعويض عن الرغبة اللاشعورية القديمة في موته ) وبذلك يتضح أن اختيار دلالة الرمز في هذا التأويل الشعبي لم يأت وليد الصدفة العارضة .

كذلك يمكن تفسير دلالاته التنبؤية في ضوء الشرطية . فوفاة قريب هي حادث خارجي ليس إلى التنبؤ به من سبيل ، وإنما هو وليد المصادفة . ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بوفاة قريب عقب الحلم بسقوط السن يؤدي إلى أن يصبح سقوط السن في الحلم رمزاً مرتبطاً بوفاة قريب ، ومنهياً شرطياً ينذر بذلك ويبعث على التطير . وكما شاءت المصادفة أن يسمع المتطير بوفاة قريب بعد أن انتابه هذا الحلم . رسخ الاعتقاد في صدق الحلم كتنذير . ويؤدي تكرار اتفاق المصادفة إلى تثبيت هذه الاستجابة المكتسبة الشرطية .

فهذا التأويل الميثولوجي ، حينئذ ، ما كان ليقتى على وجه الزمان وتناقله الأجيال ، وما كان ليذاع وينتشر لو لم تكن له دوافع لاشعورية ، ولو لم يرتبط الرمز في الحلم ( وهو فقدان السن ) ارتباطاً شرطياً مع دلالاته المستقبلية وهي فقدان قريب .

وقد سبق لنا أن أفدنا من ضم هاتين الأداتين القويتين وهما : الشرطية ، والدوافع اللاشعورية إحداهما إلى الأخرى وأخذنا بهما معا في دراستنا للتطير (١)

(١) « سيكولوجية التطير » عدد يونيو سنة ١٩٤٩ ، « اختبار التطير » عدد أكتوبر سنة

والسحر (١) ، وفي تفسير حلم نموذجي آخر هو الحلم (بالحرابي) (٢) الذي يعتقد العامة أنه يعلن عن حضور ضيف . وتوصلنا بهما إلى نتائج فاقت ما كان مقدرًا لها من قبل . وعند ما بدأنا في كتابة هذا الموضوع ، كان غرضنا عرض مختلف الآراء التي قيلت في تفسير حلم فقدان الأسنان . فإذا بنا انتهى منه وقد فسرنا عادة خلع السن عند البدائيين ، وسأحمنا بتفسير جديد لهذا الحلم ، وفسرنا تأويله الشعبي كذلك . فإذا كان التوفيق حليفنا ، فلأن التمسك بالطريقة رائدنا .

نعجيب يوسف بدوى

### حول مشكلة الوراثة والبيئة

لا بد أن يجد كل بحث علمي ، إن عاجلاً أو آجلاً ، ميدانه التطبيقي إذ أن الواقع وما يكتشفه من غموض وإشكال هو الذي يوحى إلى العالم بموضوع بحثه ويدفعه إلى مواصلة البحث لإزالة الغموض قدر المستطاع أو إيجاد حل للإشكال أو على الأقل الكشف عن أنجح الوسائل للوصول إلى الحل المنشود . وتتفاوت المسائل العلمية من حيث قرب اتصالها بالميدان التطبيقي أو بعدها عنه . ومن المشكلات العلمية التي لا تزال رهن البحث والمناقشة والتي تربطها صلات وثيقة جداً بميادين التطبيق مشكلة الوراثة والبيئة . وهذه الميادين حيوية للغاية إذ أنها تشمل كل ما يتعلق بالتربية والأخلاق والإصلاح الاجتماعي . فموضوع التطبيق ليس المادة الجامدة بل الإنسان في مختلف أطوار حياته ومختلف ميادين نشاطه الفردي والاجتماعي . وبما أن دراسة عوامل الوراثة وقوانينها وكذلك دراسة عوامل البيئة وطرق تفاعلها وتقدير أثر كل عامل منها بالنسبة إلى الآخر وطبيعة التأثير المتبادل بين الوراثة والبيئة لا تزال حديثة العهد ونتائجها قليلة وجزئية فلا غرو أن نجد بعض من يهمهم قبل كل شيء التطبيق في مجال التربية والسياسة يسرعون في تأويل بعض النتائج الجزئية المحدودة التي تلائم مذهبهم العملي على أنها حقائق عامة

(١) « السحر » عدد يونيو سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

(٢) « تأويل شعبي لحلم تنبؤي » عدد أكتوبر سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .